ثعلب الصحراء

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

«نحنُ العربَ ننفعلُ ولا نفعلُ!»

قالها السفيرُ القديمُ، بكلِّ اقتناعٍ ويقينٍ، كنتيجةٍ توصَّلَ إليها من خلالِ عملهِ الدبلوماسيِّ الطويلِ، وختمَ بها عدداً من الأمثلةِ التي ضربَها لجلسائِه على لعبِ الغربِ بعواطِفنا، واستفزازِنا للقيامِ بعملٍ يعرفُه مسبقاً.

وبدا أنَّ المجلسَ كلَّه مقتنعٌ بوجهةِ نظرِ السفيرِ القديم. وابتسمَ عزيزُ الخطيبُ، أحدُ سفراءِ الجيلِ الجديد، واستأذنَ في التعقيبِ: «ما قاله السيِّدُ العميدُ صحيحٌ. إلا أنني لاحظتُ مؤخراً علاماتِ الوعي بهذه المشكلةِ، والنزوعِ إلى الخروجِ منها وتجاوزِها، بل واستعمالِها ضدَّ بعضِ الغربيينَ بمهارةٍ كبيرةٍ!».

فسأله العميدُ، وفي صوته نبرةُ استخفافٍ: (كيف؟).

فقال السفيرُ الشابُّ: «إنها قصةٌ حدثتْ لناسٍ أعرفُهم معرفةً جيدةً. بطلُها أميرٌ شابٌ اسمُه جميلُ نعمان. التقيتُ به أولَ مرة في حفلِ رأسِ السنةِ الذي أقمتُه بشقتي بلندن. جاءَ به الملحقُ الثقافيُّ لبلادِه ليعرِّفَه على المجتمع الدبلوماسيِّ الشابِّ بالعاصمةِ البريطانيةِ وقدَّمهُ لي باسمِ (الأمير جميل).

وابتسمَ الأميرُ القصيرُ الشديدُ السمرةِ، وقالَ، وفي عينيْه ابتسامةٌ ذكيَّةٌ: «آسفُ! إنه اسمٌ على غير مسمى!» وفي الحالِ دخلَ قلبي. فمن لهُ هذه الروحُ الخفيفةُ المرحةُ لا يمكنُ أن يكونَ قبيحاً!

وعلمتُ من الملحقِ الثقافيِّ لبلاده أنَّ الأميرَ يعيشُ مأساةً عاطفيَّةً، كان قد تعارفَ بفتاةٍ إنجليزيَّةٍ، وأحبَّها حبًّا شديداً، وكان ينوي الزواجَ منها، ولكنها تركتْه إلى شابٍّ إنجليزيٍّ في نفسِ اليومِ الذي أهداها سيارةً رياضيَّةً جديدةً، وأخذتِ الهديةَ معها..

وبذلتُ أنا جهداً استثنائياً لتسليةِ الأميرِ الشابِّ، وجعلِه ينسى مأساتَه، ويستمتعُ بالحفلِ.. وكان جوُّ المرحِ سائداً، الأمرُ الذي سهَّلَ مهمتي...

وحينَ ودَّعتُه، كانَ جدُّ متأثراً بلحظاتِ السعادةِ التي عاشَها بعيداً عن مأساتِه. فودَّعني شاكراً بحرارة..

وكان ذلكَ آخرَ عهدي به. فقدْ انتقلتُ إلى واشنطنْ، بعدَ ذلك بقليلٍ، ولم تبقَ لي من لندنَ إلا الذكرياتُ الجميلةُ،

ومنها تلكَ الحفلةُ التي كانتْ حفلةَ استقبالٍ ووداعٍ في الوقتِ نفسِه، استقبالِ السنةِ الجديدةِ، ووداعي أنا للندن.

ومرتْ سنتان على وجودي بالعاصمةِ الأمريكيَّةِ، وذاتَ يومٍ، رنَّ الهاتفُ في مكتبي، فإذا صديقي وزميلي القديم في لندنْ، محمد سلطان، يخبرُني بأنه في واشنطن، وأنه هو الآخرَ انتقلَ إليها في نطاقِ عملِه، فدعوتُه للعشاءِ في ذلكَ المساءِ في أحدِ المطاعم الصينيَّةِ الصغيرةِ.

ولا أدري هل كنتُ أكثرَ اشتياقاً إليه أم إلى لندن.. فجلستُ أسألُه عن أصدقائنا والمطاعمِ والأنديةِ والحدائقِ العامةِ التي كنا نرتادُها...

وتذكرتُ حفلنا الأخيرَ، وجميلَ الأميرَ وصاحبتَه الإنجليزيةَ، فسألتُه عنهما، وابتهجَ لسؤالي، وقال: "ذكَّرتني بقصة الأمير، وكنتُ أحفظُها لكَ حتى نلتقي. فهي قصةٌ من النوع الذي يعجبكَ، وتستحقُّ، في نظري، الكتابةَ".

وكانتْ تعجبُني طريقةُ سلطانٍ في الحكي. فهو ذو عينٍ حادَّةِ الملاحظة، وله ولعٌ بالتفاصيلِ الدقيقةِ والجوانبِ الجماليَّةِ.

قال:

«حدثَ ما كانَ متوقعاً، لم تمضِ على علاقتِهما هو وكريستين شهران حتى انفصلا. جاءَ الانفصالُ منها، وبطريقةٍ سوقيَّةٍ بشعَةٍ! كانا في نادٍ ليليٍّ، فطلبها شابٌّ إنجليزيٌّ للرقصِ معَهُ، فتركتِ الأميرَ، ونهضتْ ترقصُ مع الشابِّ الغريبِ، دونَ استئذانِ الأمير. فأمسكَ هذا بيدِها بقوةٍ قائلاً: «أنسيتِ أنكِ معي؟!» فسحبتْ منه يدَها بعنفٍ، وقالت:

– أنتَ لا تملكُني!

– ولكنَّ الأصولَ تقتضي..

فقاطعتْه قائلةً:

ذلك في بلدكِمُ المتخلفِ، ومعَ نسائِكمُ المتحجباتِ المستعبداتِ! نحنُ هنا في بريطانيا، وفي لندن، قلبِ الحضارةِ! ولا فرقَ عندنا بينَ الرجلِ والمرأةِ!

وأخذتْ تردحُ لهُ ردحَ الحواري، وجمعتْ عليه روادَ النادي، وكانَ مع الأميرِ مرافقٌ من السفارةِ، فخافَ أن تتطورَ الأمورُ، وتخرجَ إلى الصحافةِ البريطانيةِ الجائعةِ إلى الفضائحِ،

خصوصاً إذا تعلقَ الأمرُ بأمير. . فانسحبَ الأميرُ، تاركاً الفتاةَ في عنقِ الشابِّ الكوكني، تلوكُ العلكَ، وترمشُ أهدابُها الصناعيةَ الطويلةَ، وترددْ: (بلايمي!) .

وأرادَ الأميرُ استردادَ السيارةِ منها، ولكنَّ مرافقَه نصحه ألا يفعلَ فقد صارتْ في ملكِها، وعليه أن ينساها وألا يرجعَ في هديته.

ولم تكتفِ كريستين بهجره بتلكَ الطريقةِ السوقيَّةِ البشعةِ، بل أخذتْ تمرُّ عليه في منزلِه بالسيارةِ، يسوقُها صاحبُها الجديدُ، وتنفخُ بوقَها ليطلَّ، فلتوحَّ له، وينطلقان بالسيارةِ ضاحكيْنِ!

ومرضَ الأميرُ وتعذبَ، وكرهَ الإنجليزَ ونساءَهم وبلادَهم. وانصرفَ إلى المضاربةِ في برصة القيم المالية، وكان ذا حظٍّ يكسرُ الحجر، فكسب أموالاً طائلة.

ومرتْ سنتان على فعلةِ كريستين معه، وكاد ينساها، بعدَ أن كفَّتْ عن استفزازِه، لولا أنه رآها مرةً أخرى وهي تدخلُ فندقَ (هاورد) القديمَ الشهيرَ. وكانَ هو صحبةَ ضيوفٍ من

بلدِه، فأخفى وجهَهُ حتى لا تراه.

وكانَ نادلٌ هنديٌّ يخدُمهم، فسألَهُ مشيراً إلى الفتاةِ، ومتصنعاً الإعجابَ بها: «من هيَ تلك الفتاةُ الجميلةُ، يا صاحب؟».

فضحكَ النادلُ، وقال: «الأحسنُ ألا تنظرَ إليها، فهي زوجةُ مديرِ الفندقِ وذاكَ زوجُها».

وفي تلكَ الليلةِ أرَّقهُ منظرُها، وقد زادتْ جمالاً ونضجاً وأناقةً وذوقاً، على الأقلِّ في مظهرِها.. وعادَ إليه غضبُه الشديدُ من تصرِّفها الوحشيِّ معهُ، وباتَ شيطانُ الانتقامِ يوسوسُ في صدرِه، وهو ينصتُ إليه، ولم يغمضْ له جفنٌ حتى كانتْ خطةُ الانتقامِ قد اكتملتْ في خياله..

استغربَ (نايجل كلاركْ، رئيسُ قسمِ تفتيشِ المباني العتقيةِ ببلديَّةِ مدينةِ لندن، حيثُ وجدَ على مكتبه رسالةً من سفارةٍ عربيَّة، إنه قلما يتسلمُ بريداً شخصياً إلا في أيامِ رأسِ السنةِ، أو بمناسبةِ عيدِ ميلادِه. وهي قليلةٌ جداً أما بريدُ العملِ فيأتيه مفتوحاً ومسجلاً. واستغربَ أكثر حينَ وجدَ أنَّ الرسالة،

دعوةٌ إلى حفلِ استقبالٍ بمناسبةِ العيدِ الوطنيِّ لذلك البلدِ. وتصوَر حفلَ الكوكتيلَ، كما يراهُ في الأفلامِ، فاستولى عليه الفزعُ، وتردَّدَ في الذهابِ! فلم يسبقْ له أن حضرَ حفلاً دبلوماسياً في حياتهِ! ولكنَّ موعدَ الحفلِ كانَ ما يزالُ بعيداً، مما يتيحُ له مجالاً للتفكيرِ والاستعدادِ النفسيِّ.

كان (نايجل كلارك) في آخرِ سنةٍ من حياتهِ الوظيفيَّةِ، لم تبقَ له للتقاعدِ إلا سنةٌ واحدةٌ. ولم تتحْ له أجرتُه المحدودةُ ووظيفه الباهت القاعد فرصةً للتغييرِ والاحتكاكِ بالحياةِ والناسِ، ولم يساعدْه جسدُه المعروقُ وقامتُه الطويلةُ وعيناهُ الواسعتان الصفراوان على حياةٍ عاطفيةٍ عامرةٍ بالمغامراتِ وملذاتِ الشبابِ.

أثَّر كلُّ هذا في قرارهِ الأخيرِ أن يقهرَ مخاوفَه ويذهبَ إلى الحفلِ البلوماسيِّ، كثورةٍ صغيرةٍ على الجمودِ والركودِ وعبوديَّةِ الوظيفِ!

وفي المساءِ الموعودِ، خلعَ بذلتَهُ الرماديةَ القديمةَ، وارتدى بذلتَه الكحليةَ الوحيدةَ، وذهبَ إلى السفارةِ العربيَّةِ الفخمةِ.

واستقبلَهُ على البابِ حاجبٌ في حلتِه الرسميَّةِ الحمراءِ المذهبةِ، وانحنى عليه بأدبٍ، وسألَهُ عن اسمِه، ثم سارَ أمامَه مختالاً كالطاووس، وقدمَهُ للسفيرِ رافعاً عقيرتَه باسمه: (مستر نايجل كلارك). وتقدَّم الرجلُ، بعدَ أن سمعَ اسمَه يُنطقُ بهذا البهاءِ، ويُعطى هذه الأهميةَ، وكأنَّه سمعَهُ لأولِ مرةٍ! ومشى نحوَ السفيرِ وزوجتِه، وكأنه يسيرُ على سحابٍ. وأمسكَ السفيرُ بيدِه، وربتَ عليها، وكأنه يعرفُه، وقال مرحباً به: «أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم في حفلِنا! أرجو ألا تنسحبوا قبلَ أن أراكُمْ بعدَ الحفلِ».

ولم يدر كلارك ما يقولُ، كان كلُّ شيءٍ جديداً عليه، فظنَّ أن كلامَ السفيرِ مجردَ مجاملةٍ يقولُها للجميعِ، وأخذَ يكررُ: «شكراً، سيدي السفير، شكراً...».

ولكن مستشارَ السفارةِ تقدمَ للسلامِ عليه، وأومأَ إلى نادلٍ فجاءَ بصينيةٍ عليها عدةُ أكوابٍ. أخذ كلارك كأساً بها شرابٌ ذو لونٍ ذهبيٍّ، ووقفَ ينصتُ إلى المستشارِ وهو يؤكدُ له رغبةَ السفيرِ في الحديثِ إليه، بعد انتهاءِ الحفلِ.

وقبلَ انفضاضِ الحفلِ وخروجِ المتخلفين من أعضاءِ السفارةِ وأصدقائهم، طلبهُ السفيرُ إلى مكتبهِ، وقد أذابَ جوُّ الحفلِ خوفَه وارتباكَه ورفَع معنوياتهِ.. واستغربَ كلاركُ من وجود شابٍّ قصيرٍ شديدِ السمرةِ مرتبكِ الملامحِ قاعداً في مكانِ السفيرِ..

ولم يفهمِ الوضعَ إلا حينَ قدَّمَهُ له السفيرُ بقولِه:

صاحبُ السموِّ الأميرُ جميلٌ!

فانحنى كلاركُ في ارتباكٍ، ومدَّ يدَهُ للسلامِ عليه، ولمْ يقف الأميرُ، بل اكتفى بمدِّ يده إليه، ومعها ابتسامةٌ وكلماتُ ترحيبٍ، وسحبَ له عبدُالله السويهل، مستشارُ الأميرِ، كرسيًّا جلسَ عليه بينه وبينَ السفيرِ، وتكلمَ المستشارُ:

مستر كلارك، ربما كنتَ تتساءلُ عن سببِ هذهِ الدعوةِ وهذا اللقاءِ. والآن حانَ وقْت إزاحةِ الغموضِ، سموُّ الأميرِ ينوي استثمارَ مبالغَ هامةٍ في العقارِ بلندن. وهذا يحتاجُ إلى خبراءَ جديرينَ بالثقةِ، وقد سألْنَا وبحثْنا فدلَّنا عددٌ منْ أصدقائنا من ذوي المقاماتِ العاليةِ عليكم، ورشَّحوكمْ لنا

بكثيرٍ من التزكيةِ!

فقالَ السفيرُ: «وهذا شيءٌ يستحقُّ التهنئةَ...».

وقال المستشارُ: ونحنُ نعرفُ أنه لم يبقَ لكم للتقاعدِ إلا سنةٌ واحدةٌ. فإذا لم تكونوا التزمتمْ بالعملِ مع مؤسسةٍ أخرى، فنحنُ نعرضُ عليكمُ العملَ معنا في ميدانِ خبرتكم، وبأجرٍ تحددونَهُ أنتمْ، ولن يكونَ أقلَّ من خمسةِ أضعافِ أجرِكمْ الحالي.. إلى جانبِ فوائدَ أخرى، مثل دارٍ شاطئيَّةٍ تقضونَ فيها عطلَكُمْ. فماذا تقولون؟

وفوجئَ كلارك، وأرتجَ عليه، فقال: «لا أدري!».

وانقبضتْ صدورُ الثلاثةِ، واستدركَ الرجلُ:

«أعني لا أدري هل أستطيعُ القيامَ بما تعقدونه عليَّ من آمالٍ...».

فقالَ السفيرُ مشجعاً: «لا تخشوا شيئاً من هذه الناحيةِ، إننا لم نختَرْكم إلا حينَ تأكدنا من أنكمْ ستقومونَ بالمهمةِ خيرَ قيام..».

وأضافَ المستشارُ: «وإذا لم تخشوْا التقصيرَ في عملِكم

الرسميِّ، فقد نحتاجُ إلى بعضِ خدماتِكم قريباً...».

فقالَ كلارك: «لا مانعَ عندي، فعملي يتركُ لي كثيراً من الوقتِ الفارغِ».

وأومأَ الأميرُ جميلٌ إلى مستشارِه، ففتحَ هذا حقيبةَ أوراقٍ سوداءَ، كلارك، قائلاً: «هذا عربونٌ صغيرٌ على جديةِ التزامنا. يفضلُ سموُّ الأميرِ أن تأخذوهُ نقداً، تفادياً لتساؤلاتِ ذئابِ الضرائبِ!».

وغمزه باسماً، ووقفَ الأميرُ لتوديعِه على أن يعقدَ معهُ مستشارُه جلسةَ عملٍ في شقتِه لمناقشةِ تفاصيلِ صفقةٍ معينةٍ.

خرجَ كلارك من السفارةِ يسيرُ على الهواءِ، ورأسُه في السحابِ من النشوةِ، وكأنه كسبَ يانصيب المليونِ جنيهٍ، وضَمِنَ الأمانَ ضدَّ الفقرِ، وخرجَ من عالمِ الضنكِ إلى عالمِ المترفين... وأحسَّ برغبةٍ مُلِحَّةٍ في المشيِ في الشوارعِ التي بدأتْ تخلو، ليجترَّ الأحداثَ السعيدةَ، ويتذوقَها ويتملظَ بحلاوتِها واحدةً واحدةً...

وفجأةً تذكرَ الظرفَ الماليَّ السميكَ الذي كانَ في جيبِ

صدرِه، فأخذَهُ الفزُغ! والتفتَ حواليْه، فوجدَ نفسَهُ وحيداً في الشارعِ الخالي، فأمسكَ بصدرِه، وأسرعَ نحوَ موقفِ سياراتِ الأجرةِ.

وفي زوالِ اليومِ الموالي، حضرَ كلاركُ إلى شقةِ عبدِالله السويهلِ مستشارِ الأميرِ. ضغطَ على الجرسِ في آخرِ ثانيةٍ من الدقيقةِ، ووقفَ يسوِّي ربطةَ عنقِه الجديدةِ، ويهيِّئُ نفسَهُ للمقابلةِ الهامةِ.

وفتحَ المستشارُ البابَ بنفسِه، ورحبَ بكلارك بحرارةٍ تحرجُ الإنجليزَ.

قال لهُ، وهو يهيئُ له مشروبَهُ المفضلَ:

«صرفتُ الخدمَ حتى نبقى وحدَنا، ونتحدثَ بحريةٍ».

وجلسَ الرجلان متقابلينِ في ركنٍ من غرفةِ الجلوسِ الكبيرةِ. وأنصتَ كلاركُ بإمعانٍ إلى المستشارِ الذي دخلَ مباشرةً في الموضوعِ:

«طلبَ مني سموُّ الأميرِ أن آخذَ رأيكُم في بعضِ الاستثماراتِ العقاريةِ التي ينوي الشروعَ فيها، وعلى رأسِها

فندقٌ يدعى (هاورد). فهلْ يمكنكُم أن تفيدوني بشيءٍ عنه؟».

فتنحنحَ كلارك، وهو يستجمعُ أفكارهُ عن الفندقِ الكبيرِ، وقال:

«هاوردْ استثمارٌ جيِّدٌ، وصاحبُه اللورد ماتيسون في حوالي الخامسةِ والسبعين، وهو يعتبرُ الفندقَ مفخرةَ أسرتِه وجوهرةَ تاجِها. بناهُ جدُّه من أرباحِ تجارتِه بالهندِ، أيامَ الوجودِ البريطانيِّ بها، وهو رجلٌ منطوٍ على نفسِه غريبِ الأطوارِ، والتعاملُ معه قد يكونُ نوعاً ما صعباً».

فقال السويهلُ: «هنا يأتي دورك للتفكيرِ لنا في طريقةٍ ما لإقناعِه، وتسهيلِ أمرِ فراقِه لمفخرةِ الأسرةِ، وبيعِها لسموِّ الأميرِ..».

وترددَ الإنجليزيُّ، وبانتْ عليه الحيرةُ، فأخذَ يطرفُ جفنيه الكبيرين، وزمَّ شفتيه، فأنقذَهُ المستشارُ الحصيفُ بقوله:

«لا أنتظرُ منكَ الجوابَ الآن. خذْ ما يكفيكَ من الوقتِ للتفكيرِ. ملفُّ مبنى الفندقِ بين يديك، وقدْ تجدُ فيه ما

يجعلُ اللوردَ ماتيسون يغيِّرُ رأيَه في الاحتفاظِ بالفندقِ، فهو قديمٌ على أيِّ حالٍ..».

فأضافَ كلاركُ متطوعاً: «إنه يقتربُ من المئةِ سنةٍ. ولكنه سليمُ البناءِ، رغمَ وقوعِه على ضفةِ النهرِ، ولكنْ اتركِ الأمرَ لي لابدَّ أن نجدَ وسيلةً ما..».

فأجابَهُ المستشارُ بالقولةِ المأثورةِ: «إذا توافرتِ الإرادةُ، وجدتِ الوسيلةُ!».

مرَّ كلاركُ على مطعمٍ صينيٍّ، وأخذَ غداءً خفيفاً في علبةٍ بلاستيكٍ، واختلى به في مكتبِه، وشمَّر عن ساعديْه، وأخرجَ ملفَّ فندقِ هاورد السميكَ. ولم يغادرِ المكتبَ إلا بعدَ أنْ خلت المؤسسةُ من جميعِ الموظفين، ولم يبقَ بها إلا عمالُ النظافةِ وحراسُ الليلِ. خرجَ وفي حقيبتِه أوراقُ ملفِّ الفندقِ.

وباتَ ليلتَه يقلبُ الأمرَ على جميعِ وجوهِه، فلم يجدْ وسيلةً مشروعةً لاقتناءِ الفندقِ إذا رفضَ صاحبُه البيعَ، وكلُّ الوسائلِ الأخرى كانتْ حيلاً وألاعيبَ كفيلةً بتوريطِ صاحبِها أمامَ القانونِ!

وقضى ليلتَه في حوارٍ مع الشيطان، ثمَّ في صراعٍ معه، وفي الصباحِ، وضعَ السيفَ، ورفعَ يدْيه مستسلماً.. كانتْ حجتُّه هي أنهُ رجلٌ نظيفٌ نزيهٌ عاشَ طولَ حياته مستقيماً شريفاً وفوقَ الشبهاتِ، فكيفَ يسمحُ لنفسهِ بإلقاءِ كلِّ ذلكَ الرصيدِ في سلَّةِ المهملاتِ في سنٍّ لمْ يعدْ له فيها طموحٌ ولا حاجةٌ لشيءٍ!.

وكانت حجَّةَ الشيطانِ: «إنكَ عشتَ جباناً طولَ حياتِك، تخافُ المغامرةَ والتغييرَ. وقريباً تدخلُ غيبوبةَ الشيخوخةِ، وليس لكَ من الذكرياتِ الجميلةِ ما يؤنسَ وحدتَك! وقدْ تصابُ بمرضٍ عضالٍ يقتضي علاجُه مبالغَ طائلةً لا طاقةَ لك بها، وتبقى مرميًّا في مستشفًى حكوميٍّ تحتَ رحمةِ الممرضاتِ! ثم إن هذه الفرصةَ العظيمةَ التي سعتْ إليكَ بنفسِها لن تتكررَ! وإذا لم تغتنمْها أنتَ فغيرُك ينتظرُها بلهفةٍ! إلى جانب أنَّ هذا المالَ الذي ستأخذُه ليسَ مالَ فقراءٍ أو محتاجين. إنه مالُ أغنياءٍ نزلَ عليهمْ من السماءِ، دونَ أنْ يسفحوا من أجلهِ قطرةَ عرقٍ أو يقوموا بشغلِ يومٍ! أمَّا أنتَ

فستعرفُ ما تفعلُه بهذا المالِ. فقد عشتَ طولَ حياتِكَ تصطدمُ بحواجزِ الأثمانِ المرتفعةِ، فتتراجعُ، وتسقطُ على ظهرِكَ في حظيرةِ الرخيصِ المبتذلِ! تخيَّلْ أنكَ ستكونُ قادراً على شراءِ أيِّ شيءٍ كيفما غلا ثمنُه! كدارٍ أو سيارةٍ أو رحلةٍ سياحيَّةٍ حولَ العالمِ بالدرجةِ الأولى! إذا رفضتَ هذا العرضَ وضيَّعْتَ الفرصةَ، فستندمُ وتحتقرُ نفسَك، وتبقى في نظرِكَ جباناً رعديداً بليداً... بليداً... بليداً...

وغلبهُ النومُ، واستراحَ من عذابِه.

وفي الصباحِ أيقظَهُ رنينُ الهاتفِ الحادِّ، كانَ مستشارُ الأميرِ على الطرفِ الآخرِ، يحييه ويدعوهُ للغداءِ مع الأميرِ بشقتهِ بحيِّ (سنت جميس) الأريستوقراطي.

وبعد الغداءِ الفاخرِ سألهُ الأميرُ هلْ توصَّلَ إلى شيءٍ، فقال كلارك باحترام: «نعْم، ياسموَّ الأميرِ». وفتحَ حقيبتَه وأخرجَ منها ملفَّ الفندقِ العتيقِ، وفتحَهُ أمامَهُ، وأخذَ يشرحُ له مراحلَ العمليةِ، والأميرُ يضحكَ عالياً، ويعودُ إلى العضِّ على سيجارهِ والاستزادةِ.

وفي نهايةِ العرضِ، لم يتمالك الأميرُ من الإمساكِ بكتفِ الإنجليزيِّ النحيلِ، ومصافحتِه بحرارةٍ، قائلاً: كانَ يجبُ أن تكونَ جنرالاً! فهذه الإستراتيجيةُ الدقيقةُ لا تتوفرُ إلا لقائدٍ عسكريٍّ محنَّكٍ! لابدّ أن دماً عسكرياً محترفاً يجري في عروقِك!.

فابتسمَ كلاركُ، وقال: «لم تبتعدوا كثيراً عن الحقيقةِ، يا سموَّ الأمير، فوالدي كان ضابطاً محترفاً، قضى مدةً غيرَ قصيرةٍ في الشرقِ الأوسطِ، وفي فرقةِ اللورد ماتيسون، وبالمناسبةِ، سأستغلُّ هذهِ العلاقةَ كمدخلٍ لإقناعِ اللوردِ بالبيعِ».

فقالَ الأميرُ: «رائع! رائع! ومضمونٌ النجاحُ! وعندي اقتراحٌ أودُّ أن أرى رأيكَمْ فيه».

ففتحَ كلاركُ عينْيه كعادتِه حينَ يظهرُ الاهتمامَ، وأنصتَ بإمعانٍ، فقالَ الأميرُ: «أنا أحبُّ التمثيلَ. وقد لا تعلمُ أنني ممثلٌ بارعٌ. وكان يمكنُ أن أكونَ نجماً لامعاً، لولا مركزي الاجتماعيِّ في بلدي..».

وشــرحَ له دوراً ينوي القــيــامَ به في بهــوِ الفندقِ لإعطاءِ المصداقيَّةِ لخطَّةِ كلارك. وأنصتَ الإنجليزيُّ، ثم انفجرَ ضاحكاً دونَ تحفظ، وقال: «برافو، يا سموَّ الأميرِ! إنها رصاصةُ الرحمةِ في رأسِ أصــحــابِ الفندقِ! وهمْ يســتــحــقــونَهــا على كلِّ حالٍ..».

ومن شـقـة الأمـيـر اتصلَ كـلارك هاتفـيـاً بقـصـرِ اللوردِ مـاتيـسـون، وأخـذَ مـعـهُ مـوعـداً لليومِ الموالي بعدَ مـفـاوضـاتٍ طويلةٍ مع سكرتيرتهِ، وتخويفٍ بالعواقبِ الوخيمةِ لرفضِه المقابلةَ!

وفي التاسعةِ من صباحِ اليومِ الموالي كانَ كلاركُ يدقُّ بابَ قصرِ اللوردِ ماتيسون. كانَ الرجلُ العجوزُ يتناولُ إفطارَه تحتَ شمسيَّةٍ زاهيةِ الألوانِ في الحديقةِ الفسيحةِ الخضراءِ. وانحنى أمامَه بكثيرٍ من التبجيلِ والاحترامِ، وقدمَ له نفسَهُ، وقبلَ أن يدخلَ في الموضوعِ، قال: «سيدي، أنتمْ لا تعرفونني، ولكنِّي أعرفكُم حقَّ المعرفةِ..».

فرفعَ اللوردُ حاجبيْه البيضاوينِ من فوقِ نظارتهِ، ونظرَ إليه

obeikan.com

متسائلاً: «كيفَ؟».

فقال كلارك: «كانَ والدي، الماجور جونْ كلارك، أحدَ ضباطِكم في حملةِ العراقِ المجيدةِ، وكانَ له تعلُّقٌ كبيرٌ بكم وإعجابٌ بعبقريَّتكمْ في التخطيطِ والقيادةِ.. وكان اسمكم يُذكرُ في بيتنا كلَّ يومٍ وأنا طفلٌ صغيرٌ حتى حسبتُك أحدَ أفرادِ أسرتنا. وقد كانَ الوالدُ المرحومُ يعدُّ الجيشَ أسرتَه!».

وانشرحَ اللوردُ ماتيسون، وانبسطتْ أساريرُه الكئيبةُ، وكلارك يعيدُ عليه بعضَ ذكرياتِ والدِه، ويأسفُ لأنَّها لمْ تكتبْ لتدخلَ في حولياتِ الجيشِ البريطانيِّ العتيدِ، وتصبحُ طرفاً من تاريخِه المجيد..

ووقعتْ يدُ كلارك على حقيبةِ أوراقِه، فقالَ، وكأنَّه تذكَّرَ شيئاً نسيَه: «سيدي اللورد، كدتُ أنسى الموضوعَ الهامَّ الذي جئتكُم من أجلِه!».

وفتحَ الحقيبةَ وأخرجَ الملفَّ، ووضعَ يَده فوقَه وقال: «هذا موضوعٌ يهمُّكم، جئتُ لأتحدثَ إليكم فيه على انفرادٍ..».

ونظرَ إلى الخادمِ الذي كان يقفُ وراءَ اللوردِ، وعلى ساعدِه

منديلٌ، فالتفتَ اللوردُ، وصرفَهُ بحركَةٍ من يدِه، ونظرَ إلى كلارك رافعاً حاجبيْه الكثيفين: «هات ما عندكَ..».

فقال كلارك: «كانَ يمكنُ أن أخبركم بهذا برسالةٍ رسميَّةٍ جافَّةٍ، ولكنكمْ أعزُّ عليَّ من ذلكم.. يتعلقُ الأمرُ (بفندق هاورد). آخرُ تقاريرِ مفتشينا لا تبعثُ على الارتياحِ. فقدْ عثرنا في أسسهِ وسواريه على تشققاتٍ وتشعراتٍ تنذرُ بخطر.. «وترددَ قليلاً ثم أضافَ: خطرِ الانهيارِ!».

وسكتَ كلاركُ منتظراً أن يستوعبَ اللوردُ العجوزُ الصدمةَ، ويتماثلَ منها.. وارتعشتْ شفتا اللورد، ورمشَ عينيه بطريقة لا إراديةٍ، وكررَ:

«الانهيار؟».

فقال كلارك: «أخشى ذلك، يا سيدي.. وكمْ كان بودي أن آتيكمْ بأخبارٍ سارَّة، أو أخفَّ وقعاً من هذه، ولكني فضلتُ أن أصارحَكم بالحقيقةِ!».

وسكت لحظةً، ثم أضافَ: «أرأيتمْ كيفَ أنه موضوعٌ حسَّاسٌ؟ وستكونُ له عواقبُ غير مُرضيةٍ لجنابِكم لو تسرَّبَ

عن طريقِ راقنةٍ أو موظفِ محفوظاتٍ مدسوسٍ من (مافيا) العقارِ ! » .

ونزعَ اللوردُ الغطاءَ الصوفيَّ عن ركبتْيه، ونهضَ متكئاً على عصاهُ، فنهضَ كلارك، ووقفَ صامتاً باحترامٍ.

وبعدَ لحظةِ تفكيرٍ، التفتَ العجوزُ إليه، واختزلَ كلَّ ما كانَ يعجُّ به دماغُه من أسئلةٍ في سؤالٍ واحدٍ :

– لو كنتَ في مكاني، ماذا كنتَ تفعلُ؟

فافتعلَ كلاركُ المفاجأةَ للسؤالِ الذي كانَ يتمنى أن يطرحَهُ اللوردُ، وتصنَّعَ التردَّدَ، ثم قال :

– سيدي اللورد، هذا شرفٌ كبيرٌ وثقةٌ غاليةٌ أرجو أن أكونَ أهلاً لها . . . لو كنتُ في مكانِكم لتجاهلتُ عواطفي تجاهَ هذا الصرحِ الإنجليزيِّ المجيد، واستعملتُ الجراحةَ!

– الجراحةَ؟!

– أعني الحسمَ السريعَ، قبل أن يتسربَ الخبرُ . .

– كيفَ؟

هناك حلان؛ إما هدمُه وبناءُ ناطحةِ سحابٍ في مكانهِ،

وهو مشروعٌ طويلٌ المدى، ولكنهُ سيدرُّ الملايين..

فحركَ اللوردُ رأسَه غيرَ موافقٍ، وانتظرَ الحل الثاني، فقال كلارك:

– أو البيعُ لأولِ مساومٍ!

وهنا نظرَ اللوردُ حوالْيه، واقتربَ من كلارك، وسأل:

– ولكنَّ المشتري لابدَّ سيطلبُ جميعَ الوثائقِ المتعلقةِ بالفندقِ، ومن جملتِها آخرُ تقاريرِكمْ عن حالةِ المبنى.

وهنا ابتسمَ كلاركُ ابتسامةَ الذئبِ الذي اقتربَ منه الحملُ أكثرَ مما ينبغي له! وقالَ:

– ملاحظتُكم في محلِّها، يا سيدي اللورد، والمشكلةُ تحتاجُ إلى حلٍّ، حلٍّ عاجلٍ. ولكن لا تقلقوا، ياسيدي، فقدْ فكرتُ طويلاً، قبلَ قدومي إليكم، في إراحتِكم من عناءِ التفكيرِ في الحلِّ..

– تعني أنكَ وجدتَ حلاً؟!

– نعم، يا سيدي. أنا مستعدٌ لارتكابِ خطأ صغيرٍ، غير مقصودٍ، طبعاً، تظهرُ فيه قواعدُ الفندقِ سليمةً من كلِّ عيبٍ،

رعياً لعلاقتِكم الطيبةِ بالمرحومِ الوالدِ العزيزِ، وأقنعُ بقسطٍ طفيفٍ من فرقِ الثمنِ.

وتلعثم قليلاً، غيرَ متأكدٍ من ردِّ فعلِ اللوردِ، فكلُّ شيءٍ محتملٌ مع أمثالهِ من المثاليين العجزةِ، فقد يثورُ في وجههِ وينهرهُ، أو يرفعُ عصاهُ ويهوي بها على رأسِه، رافضاً الاقتراحَ المشبوهَ والابتزازَ الوقحَ.. ولكن اللورد بقي هادئاً، وقال مستفسراً:

– فرقُ الثمن؟

– عفواً سيدي! أعني الفرقَ بين ثمنِه سليماً وثمنِه بعدَ الحكمِ عليه بالهدمِ كخطرٍ على الناسِ..

– كمْ بقيَ في عمرِ الفندقِ، في نظرِكمْ؟

– يصعبُ التحديدُ. ولكنَّ التقريرَ يقدرُ من سنةٍ إلى خمسِ سنوات.

وعادَ اللوردُ للجلوسِ تحتَ المظلةِ، وقدَ شحبَ لونهُ، ونشَّ وجههُ عرقٌ باردٌ... ووضعَ يديْه على عصاهُ، وأراحَ ذقنَهُ فوقهما، ومطَّ شفتْيه مفكراً. وأخيراً قال:

– أعتقدُ أن اقتراحَكَ وجيهٌ، فاتركْ لي مهلةً للتفكيرِ..

– أنا مستعدٌ أن أكتُمَ التقريرَ يوماً أو يومين، وإذا أخبرتموني بقراركمُ النهائيِّ داخلَ هذهِ المدةِ فسأشرعُ في عمليةِ التحويرِ المطلوبِ..

وضحكَ ضحكةً خاويةً، وجمعَ أوراقَه، وأقفلَ عليها الحقيبةَ، وقبلَ أن ينحنيَ مودعاً، وضعَ أمامه بطاقتَه، وانحنى:

– سيدي اللورد، إذا احتجتمْ إليَّ في أيةِ خدمةٍ على الإطلاق، فأنا أضعُ تحتَ تصرفكم كلَّ خبرتي وتجربتي الطويلة، وسأكونُ أقربَ إليكم من هاتفِكمْ... وانحنى مرةً أخرى، وانصرف.

وسرَّبَ كلارك خبرَ فسادِ أساس الفندقِ، في اليومِ الموالي، أعطى بذلكَ مذكرةً سريَّة لكاتبةٍ يعرفُ أن لها علاقاتٍ مع (مافيا) العقارِ لترقنها، وأوصاها بالكتمانِ التامِّ. وكانتْ النتيجة، كما توقع، أن أحداً لم يقدم على شراء الفندق، حين عُرِضَ للبيع.

وسارتِ الأمورُ أحسنَ مما كانَ يتوقعُها الأميرُ جميلٌ

وكلارك، فقد تلقَّى الأخيرُ مكاملةً من اللوردِ ماتيسون، في تلك الليلة، يخبرُه بأنَّ رأيَه استقرَّ على البيعِ، وهلْ في الإمكانِ تدبيرُ مشترٍ قليلِ الاهتمامِ بالتفاصيلِ..

فطلبَ منه كلارك مهلةً للتفكير.

وفي الصباحِ كانتْ سيارةُ اللوردِ الرلزرويس تنتظرُه لتأخذَه إلى قصرِه.

كان القلقُ بادياً على وجهِ اللورد، وكأنه لم ينمْ جيداً.. فأسرعَ كلارك إلى طمأنتهِ بابتسامةٍ عريضةٍ، وأشارَ اللوردُ إلى كرسي، وصرفَ الخادمَ، وصب لضيفِه الشايَ بنفسهِ، وكلارك ينتظرُ أن يأذنَ له في الكلامِ. وأخيراً قال اللوردُ ماتيسون مستفسراً:

– نعم ...

– سيدي اللورد، عندي خطةٌ عظيمةٌ مجرَّبةٌ لم تفشلْ قط!

وتوقفَ لحظةً، ثم أضاف:

– هذا إذا لم يكنْ لكم مانعٌ في أن يكونَ المشتري عربياً!

فزمَّ اللوردُ شفتيه، ورقصَ حاجبيه للمفاجأةِ، ثم قال:

– كانَ بودي لو يبقى في يد إنجليزية أو بريطانيةٍ أو أوربيَّةٍ، على الأقل!

– سيدي، هؤلاء تنقصهمُ فضيلةُ الغفلةِ والانفعالِ السريعِ التي يتحلى بها العربُ، والتي تقومُ عليها الخطةُ.

– وما هي الخطةُ؟

فشرحَها له كلاركُ بتفصيلٍ دقيق، وأعطاهُ بعضَ الأمثلةِ كدليلٍ على نجاحِها. وضحكَ اللوردُ كثيراً، وهو ينصتُ إلى تفاصيلِ الخطةِ اللئيمةِ. ووافقَ عليها دونَ تردُّدٍ، قائلاً:

– بحقِّ الشيطانِ نفِّذْها! لن نخسرَ شيئاً إذا لم تنجحْ!

جاءَ الأميرُ جميلٌ إلى فندقِ هاورد مرتدياً عباءةً عربيَّةً قديمةٌ، وعلى رأسِه غترةٌ وعقالٌ، وفي رجليْه نعلٌ قديمٌ تبدو منه قدماهُ السمراوان العاريتان. وحينَ همَّ بالدخولِ اعترضَ طريقَهُ بوابٌ طويلٌ عريضٌ في حلَّةٍ بهيَّةٍ حمراءَ مذهبةٍ، وعلى رأسِه قبعةٌ عاليةٌ كأنها قبعةُ جنرالٍ. وكلَّمهُ من فوق، رافعاً حاجبْيه علامةَ الاحتقارِ الشديدِ..

– إلى أينَ، يا سيدي؟

– لي موعدُ عملٍ هنا.

– لعلكمْ مخطئون، فلا أحدَ يعطي موعداً هنا لـ ... لـ... لجنتلمان من جنسيَّتكمْ ... عفواً، من بلدِكم..

وتنحنح في قبضتِه، مفتعلاً الحرجَ..

– تعني أن الدخولَ ممنوعٌ عليَّ لأنني عربي؟!

– أنا لم أقلْ ذلك، يا سيدي، أنتَ الذي قلتَه!

– ناد لي رئيسَك!

– الأوامرُ صادرةٌ عنه، يا سيد. وهي نهائيَّة! ولا حاجةَ إلى إحراجِه!

– سأرفعُ عليكم دعوى على هذه الإهانةِ، أغرِّمُكم بها كلَّ ما تملكون!

– لن تفعلوا ذلك، يا سيد! لأننا حصَّنَّا أنفسنا ضدَّ هذه المواقفِ المؤسفة!

– كيفَ؟

– بتلكَ اللافتةِ..

obeikan.com

وأشارَ إلى لافتةٍ عُلِّقتْ حديثاً على البابِ وقد كتبَ عليها: «للمؤسسةِ الحقُّ في قبولِ أو رفضِ منْ تشاء».

فاحمرَّ وجهُ الأميرِ، وانفعلَ انفعالاً عظيماً، وبدأَ يحاول دخولَ الفندقِ، والحارسُ الضخمُ يعترضُه ببطنٍ كبيرةٍ بارزةٍ في مشهدٍ مضحك..

وفجأةً ظهرَ كلارك، فدخلَ بينهما، ودفع البوابَ بغضبٍ، وهو يرددُ:

– أنت عارٌ على بريطانيا والبريطانيين!

وأحاطَ الأميرَ بذراعه، ليأخذَه بعيداً عن الفندق، والأميرُ يرغي ويزبدُ، ويتوعَّدُ ويهددُ، والشررُ يتطايرُ من عينيْه نحو البوابِ العملاقِ الأحمرِ، ويصيحُ:

– سترى... سأفصلُكَ! سأطردُكَ من هذا الفندقِ! سألقي بكَ في الشارعِ لتحترفَ التسوَّلَ، وتأكلَ التراب!

وبعد بضعةِ أيامٍ وقّعَ الأميرُ جميلٌ عقدَ شراءِ الفندقِ مع محامي اللوردِ ماتيسون في سفارةِ بلادهِ. وحرصَ المحامي على أن يكونَ البيعُ نهائياً والتسليمُ آنياً.

واحتفلَ الأميرُ مع أعضاءِ السفارةِ بانتقالِ جوهرةِ التاجِ البريطانيِّ إلى تاجه..

وفي المساء ذهبَ كلارك، صحبةَ المحامي، إلى منزلِ اللوردِ ماتيسون لتسلمِ نصيبهِ في الصفقة. وقال المحامي للورد: «سيدي، كلُّ شيءٍ سارَ وفقَ ما رسمَهُ السيد كلارك، وهو يستحقُّ كلَّ تقديرٍ...».

فقال كلارك متصنعاً الخجلَ والتواضعَ: «إنه فقطْ حسنُ حظِّكم، يا سيدي اللورد، وحسنُ استعمالِكم لعلم النفسِ والتجربةِ الطويلةِ مع العربِ في الشرقِ الأوسطِ...».

ورغم أن اللوردَ العجوزَ لم يتذكرْ أنه قالَ شيئاً عن علمِ النفسِ أو تجربتهِ في الشرقِ الأوسطِ، فإنه أحسَّ بالفخرِ والإعجابِ بذكائهِ ومهارتهِ التجاريَّة! وأضافَ كلارك: «فقدْ أثبتتْ هذه الصفقةُ الناجحةُ أن العربَ فعلاً ينفعلونَ ولا يفعلون! وقد استطعنا اللعبَ بمهارةٍ فائقةٍ على هذا الطبعِ الغريبِ، فجعلْنا الرجلَ، وهو في فورةِ انفعالٍ، يشتري خرابةً، دونَ لحظةِ تفكيرٍ أو استشارةٍ!».

وضحكَ اللوردُ، وهو يتسلمُ من المحامي الصكَّ الماليَّ السمينَ، ويوقع صكاً بأتعابِ المحامي وآخرَ بأتعاب كلارك.

وفي اليومِ الموالي ذهبَ الأميرُ جميلٌ ليتسلمَ ملكه الجديدَ. وكان الخبرُ قد سبقَه إلى الفندقِ، وأطلقَ موجةً من الإشاعاتِ.

وجمعَ له مديرُ الفندقِ جميعَ المستخدمين كباراً وصغاراً، فألقى الأميرُ فيهم كلمةً طمأنَهم فيها على وظائفهم، وطلبَ منهم في المقابلِ الحفاظَ على المستوى العالي للفندق، وأعلنَ عن نظامٍ جديد للمكافآت والترقيات للمجتهدين وأصحاب المبادراتِ المبتكرةِ التي تجعلُ فندقَ هاورد يتميزُ عن غيرهِ من الفنادق الفخمةِ. وأعلنَ أن الإدارةَ لن تبقى عموديَّة، بل ستصبحُ أفقيَّةً. ويعني ذلك أن بابهَ هو سيصبحُ مفتوحاً للجميع..

وأنهى كلمتَه الرشيقةَ بقوله: «وقبلَ أن أختمَ هذا اللقاءَ، أود أن أحكي لكمْ قصةً طريفةً من نوعِ الأساطيرِ القديمةِ التي تبتدئ بـ «كان ياما كان، في قديمِ الزمان...» إلا أن هذه

حـدثتْ منذُ زمنٍ غـيـرِ بعـيـدٍ، وفي هذا البلد الذي نحن فيه..».

وأرهفَ الجميعُ آذانَهم لسماع القصة، فلم يعتادوا على سماعِ أساطيرٍ من مديريهم السابقين. قال الأميرُ جميل:

«حدثتْ هذه القصةُ الأسطورةُ لأمير عربيٍّ شابٍّ جاء للدراسةِ في لندن، وتعارفَ مع فتاةٍ إنجليزيَّةٍ جميلةٍ للغايةِ، ولكنها من أسرةٍ لا أقولُ وضيعةً، ولكن متواضعةً... وأحبَّها حباً شديداً، وظنَّ أنها تبادلهُ الحبَّ، فطلب منها أن تكونَ خطيبتَه. وقبلتْ، فأهداها بمناسبةِ الخطوبةِ سيارةً رياضيةً جميلةً غاليةً..

إلا أنَّ الأميرَ المسكينَ فوجئ بالفتاةِ تتركُه إلى شابٍّ من جنسِها ومستواها الاجتماعيِّ، وتهديه السيارةَ التي أخذتْها هديةً من الأميرِ!

وحينَ حاولَ عتابَها على غدرِها وخيانَتِها، شتمتْهُ وعيَّرتْهُ بدمامتِه وشدةِ سمرةِ جلده.. وكانَ حبُّ الأميرِ صادقاً وقلبُه طاهراً، فتعذَّب عذاباً شديداً. وتوجَّه إلى اللهِ يلتمسُ منه

الشفاءَ من حبِّها، وفوَّضَ إليه أمرَ جزائها على ما فعلتْ!

ولم تمضِ مدةٌ طويلةٌ حتى هربَ عنها الشابُّ الإنجليزيُّ، وأخذَ السيارةَ معه، تاركاً لها رسالةً يقول فيها:

«حينَ تتسلمينَ هذه الرسالةَ ستكونُ بيني وبينَ بريطانيا آلافُ الأميالِ.. فقدْ فكرتُ كثيراً في علاقتنا، وقلتُ في نفسي: هذه التي تركتْ خطيبَها الأولَ إليكَ، لابدَّ ستتركُكَ إلى غيرِك!».

وقررتُ الاحتفاظَ بالسيارة، لا لأنها هديةٌ منكِ إليَّ، ولأن الهديةَ لا تردُّ، ولكن لحرمانك منها، جزاءً لك على خيانَتِك وغدركِ بالشابِّ العربيِّ الذي أهداكِ إياها عربونَ حبٍّ ووفاء..

وبالمناسبة؛ أودُّ أن أخبرِكِ بأن تعارفي بكِ لم يكنْ وليدَ المصادفة، بل كانَ من تدبيرِ الأميرِ العربيِّ نفسِه! فهوَ الذي أرسلني إليكِ ليختبرَكِ بي، ويعرفَ حقيقةَ حبكِ له.. وكانَ ينوي أن يتزوجَك، ويرفعَكِ إلى مقامِه العالي! وكنتِ ستصبحينَ أميرةً، وتخرجينَ أنتِ وعائلتَكِ من حفرةِ الفاقةِ والفقرِ المتوارثِ... ولكن يبدو أن بعضَ الناسِ لم يخلقوا

للحياة الكريمةِ، بل ويرفضونَها كما يرفضُ الجسدُ العضوَ الأجنبيَّ!

« ولو كانَ الوفاءُ يباعُ في الأسواقِ لنصحتُكِ بشراءِ شيءٍ منه، فنقصُه يحوِّلُ جمالَ المرأةِ إلى قبحٍ! ».

هذه نهايةُ الرسالةِ والقصة.. وأنا أحكيها لجميع شركائي في مؤسساتي حتى يعرفوا أن الوفاءَ له مردوديةٌ ماديةٌ ومعنويةٌ كبيرةٌ... وأن الوفاءَ عندي في مرتبةِ الكفاءةِ، ولا معنى لأحدِهما دون الآخرِ!

ثم قال: « وقبلَ أن تنصرفوا إلى أعمالِكم، أودُّ أن أعرَفَ هل لأحدِكُم تعقيبٌ على ما قلتُه أو سؤال ».

فرفعتْ كريستينُ يدها على استحياءٍ، وقالتْ: « هل تعرفونَ ماذا كانَ مصيرُ الفتاةِ الغادرةِ؟ فأنا على يقينٍ من أنها قاستْ كثيراً من تأنيبِ ضميرِها ومن عواقبِ غدرِها وخيانتِها التي لا تغتفرْ، وأنها تابتْ توبةً نصوحاً من شرِّ أعمالِها.. ».

فقالَ الأميرُ: « لا أدري بالضبطِ، ولكني سمعتُ أنها فوجئتْ ذاتَ صباحٍ بأنَّ المؤسسةَ التي كانتْ تعملُ فيها بأجرٍ

جيدٍ جداً، أصبحتْ في ملكِ الأميرِ العربيِّ، خطيبِها السابق».

وسكت، فقالت: «إنها قصةٌ في غايةِ التشويقِ، يا سيدي. فماذا جرى بينهما؟ لابدَّ أنه تذكَّر غدرَها وخيانَتها، وطردَها من المؤسسة!».

فقال جميل: «كان ممن الممكن أن يفعلَ ذلك؛ ولكنها كانت قد تزوجتْ، وكانت نارُ حبها خمدتْ في صدرِه، واشتعلتْ نارُ حبٍّ جديدٍ لواحدةٍ من بناتِ جنسِه. فقبِلَ توبةَ الفتاةِ، وعفا عنها، واحتفظَ بها في مؤسستهِ».

فتوردتْ وجنتا الفتاةِ الإنجليزيَّةِ، وأشرقَ وجهُها بابتسامةٍ مضيئةٍ، وقالت: «حقاً يا سيدي، إنه أميرٌ... وإنَّ خسارةَ الفتاةِ الغبيَّةِ عظيمةٌ، ولابدَّ أنها ندمتْ ندماً شديداً على ما فعلتْ...».

فقال جميلٌ، وهو يفركُ يدْيه: «إذا لم تبقَ لأحدٍ أسئلةٌ، فتفضَّلوا، والتحقوا بأعمالِكم، وشكراً لكمْ على حسن الإنصات».

وهكذا تغلب الحلمُ العربيُّ على شهوةِ الانتقامِ في صدرِ الأميرِ الأصيلِ، وأظهرَ للإنجليزِ أنَّ العربَ ليسوا أقلَّ منهم ذكاءً ولا دهاءً، وأنه كانَ الفاعلَ وكانوا هم المنفعلين!.

وختمَ الدبلوماسيُّ الشابُّ، عزيزُ الخطيبُ، القصةَ بينَ استحسانِ الحاضرينَ واعتزازِهم بعروبتِهم وإعجابِهم بذكاءِ الأميرِ العربيِّ الشابِّ.

واضطرَّ السفيرُ القديمُ إلى التسليمِ بأنَّ الوضعَ فعلاً بدأَ يتغيرُ، وأن العربَ لن يبقوا مغفَّلينَ وأهدافاً لسخريةِ الغربِ إلى الأبد!

obeikan.com